علاقة المجتمع بالبحث الاجتماعي

ا. د مصطفى عوفي جامعة - باتنة
ا. بهتون نصر الدين جامعة - خنشلة

ملخص:

يختلف البحث الاجتماعي النظري عن البحث الاجتماعي الميداني، لأن هذا الأخير مرتبط بالواقع، وهذا ما يطرح قضية مهمة هي علاقة المجتمع بالبحث الاجتماعي، كما أن هذا الطرح ينتج عنه ضرورة فهمنا للواقع الاجتماعي و الذي نشترك فيه و في تصوره وواقع أخر سوسيولوجي والذي يخص الإطار العلمي الاجتماعي، إضافة إلى هذا فإن خصائص البحث الاجتماعي تمثل حدوده الأساسية والتي لابد من الوقوف عندها ومعرفتها دون أن نغفل جملة الصعوبات التي تواجه البحث في العلوم الاجتماعية خاصة، وهذا ما يجعلنا أكثر دقة و حرصا في ممارسة عملية البحث.

Abstract:

Theoratical social research differs from social research because the later is linked to reality. This raises an important issue which is the relationship of society with social research. The present approach delineates the need for understanding social reality. In addition to this, the properties of social research represent its fundamental limits, and that ought to stand without overlooking difficulties facing people who conduct research in the social sciences.

مقدمـــة :

تعد عملية البحث الاجتماعي مجهودا إنسانيا منظما وهادفا يتجه به الباحث إلى الكشف عن طبيعة المشكلات الاجتماعية و معالجتها. وهذا ما يطرح قضية هامة تتعلق أساسا بحياة اجتماعية لها محددات لابد أن يراعيها البحث الاجتماعي، كما أن هذا الأخير يختلف في طبيعته فمنه من لا يتعدى المجال النظري للظاهرة الاجتماعية باعتبارها موضوع البحث بصفة عامة ومنه من يتعدى ذلك إلى الدراسة الميدانية للظاهرة الاجتماعية.

بالإضافة إلى هذا فلابد من أن نتفق على الحدود التي تفصل الواقع الاجتماعي عن الواقع السوسيولوجي

وهي أحد أكبر و أهم الجوانب ذات الصلة بفهم الظاهرة الاجتماعية وإخضاعها لعملية البحث لأننا لا نستطيع أن نتكلم عن بحث اجتماعي ميداني دون أن نحدد مجاله الإجرائي وهو مقاربة واقعية للبحث تتحد فيها تطلعات الباحث الاجتماعي مع الواقع والذي يمثله المجتمع كبعد آخر لحدوث الظاهرة الاجتماعية فبدون مجتمع لا وجود لظاهرة اجتماعية والتي تحدث في سياق اجتماعي وسوسيولوجي، وهذا ما يدفع بالباحث الاجتماعي إلى تناولها باتجاهات مختلفة وبالنظر للمشكلات التي تطرحها.

وعليه سنحاول أن نلم ببعض العناصر التي ربما تلقي الضوء على هذا الموضوع الأساسي وكلبنة أولى للتأسيس لعملية البحث الاجتماعي بصفة عامة والبحث الاجتماعي الميداني خاصة، وهذا من خلال العناصر التالية:

أولا مفاهيم أساسية شملت البحث الاجتماعي والبحث الاجتماعي الميداني.

ثانيا تطرقنا إلى علاقة المجتمع بالبحث كقضية هامة تتعلق بالبعد الواقعي للظاهرة الاجتماعية.

ثالثا الواقع الاجتماعي والواقع السوسيولوجي للفصل بين إطارين مختلفين تماما في فهم الظواهر الاجتماعية. أما العنصر الرابع فقد خصصناه لأهم خصائص البحث الاجتماعي وفي العنصر الخامس والأخير فعرضنا فيه أهم الصعوبات التي تواجــه البحث في العلوم الاجتماعيــة بهدف الاستفــادة منها في تطوير فهنا لحقيقــة البحث العلمــي عامــة والاجتماعي بصورة خاصة.

أولا : مفاهيم أساسية

بداية لابد من التفريق بين مفهومين أساسيين تعددت وجهات النظر حولهما،وتختلط لدى الطلبة الدارسين في ميدان العلوم الاجتماعية عامة وعلم الاجتماع خاصة، وهذا يتعلق بالمفهوم الأول وهو **البحث الاجتماعي** ويقصد به

الدراسة الاجتماعية لظاهرة ما في المجتمع، عن طريق الوصف والتحليل المعتمد على بيانات جاهزة وهذا ما لا يقصد به الدراسة الميدانية أو البحث الميداني.

المفهوم الثاني: « **البحث الاجتماعي الميداني،** وهو الدراسة الاجتماعية لظاهرة ما في المجتمع بالاعتماد على أداة جمع البيانات أو وسيلة جمع البيانات منها الاستمارة،عبر جملة من الخطوات العلمية تسمى خطوات البحث الاجتماعي الميداني »[1]. و سنشير هنا إلى أمرين غاية في الأهمية يفرضهما هذا الطرح:

الأمر الأول : يتعلق بالظاهرة والتي نقصد بها موضوع العلم ومجال البحث فيه وهذا ينطبق على كل العلوم بصرف النظر عن طبيعتها (طبيعية، إنسانية، اجتماعية)

الأمر الثاني: يخص خطوات البحث الاجتماعي الميداني والتي تشملها مرحلتي التخطيط والتنفيذ، فالأولى هو ما يمثل إستراتجية الإعداد والتحضير والتأسيس والثانية هي النزول إلى الميدان ومحاولة استنطاق الواقع وإخضاعه للدراسة.

ثانيا : البحث والمشكلات الاجتماعية

انطلاقا مما سبق نقف عند قضية هامة في البحث الاجتماعي بشكل عام وهي علاقة المجتمع بالبحث الاجتماعي[2]، حيث تظهر خصائص المجتمع الإنساني المتغيرة باستمرار، واستمرارية هذا التغير لا تأخذ السرعة نفسها مع أقسام المجتمع كافة، ولا حتى التوقيت الزمني نفسه، فبعض أقسامه تتغير أسرع من الأقسام الأخرى، وقد يحصل تغير لقسم معين في الوقت الحاضر ولا يحصل للقسم الآخر في الوقت نفسه فالنظام السياسي مثلا يتغير أسرع من النظام الديني، وإطار تغير النظام السياسي يكون أوسع وأسرع من النظام القيمي والاقتصادي.

---

[1]- عدنان أحمد مسلم، **البحث الاجتماعي الميداني**، منشورات جامعة دمشق، سوريا، الطبعة الثالثة، 2003، ص7 .

[2]- عدنان أحمد مسلم، مرجع سبق ذكره، ص 9 .

إن عدم الانسجام في التغير، وعدم التوافق يجسدان مشكلات اجتماعية وحضارية متعددة، وهذه أولى اهتمامات علم الاجتماع من أجل التعرف على أسباب هذه المشكلات ونتائجها، لكي يتمكن البـاحثون والدارسون من وضع حلول ناجعة لها، وفي هذا الخصوص يمكن أن نقسم اهتمام الباحث الاجتماعي إلى ثلاثة اتجاهات نرى أنها تتفق مع الإطار العام للبحث وهي:[1]

الاتجاه الأول: يهتم بتشخيص مسببات المشكلات فقط كتشخيص أسباب مشكلة الهجرة الداخلية، أسباب التسرب المدرسي، أسباب تعاطي المخدرات في الوسط المدرسي ... إلخ .

الاتجاه الثاني : يهتم بتقديم الحلول للمشكلات دون الاهتمام بتشخيص المسببات، كتقديم اقتراحات بمثابة حلول لمشكلة تعاطي المخدرات في المجتمع مثلا أو مشكلة عدم المشاركة الاجتماعية في المجتمع ... إلخ

الاتجاه الثالث : يشخص الأسباب ويقدم الحلول المناسبة لها في آن واحد، ويمكن أن تكون الأمثلة السابقة صحيحة على هذا الاتجاه بتطبيق معطياته ونعطي أمثلة أخرى مثل دراسة الطلاق في المجتمع ودراسة انحراف الأحداث ودراســة انتشار السرقــة في المجتمع، وهنـا يقوم الباحث بالدراسة التشخيصيـة للأسباب ويقدم على ضوء ذلك الحلول المناسبة .

بما أننا استعملنــا كثيرا فيمــا سبق مصطلــح المجتمــع والذي هو الطرف الأول في معادلة (المجتمع والبحث الاجتماعي) فما المقصود من المجتمع ؟ كسؤال ملح، فهو مجموع العلاقات الاجتماعية بين الناس أو هو كل تجمع للكائنات الإنسانية من الجنسين ومن المستويات العمرية يرتبطون معا داخل جماعة اجتماعية لها كيان ذاتي ولها نظامها وثقافتها المتميزة[2]، كما عرفه مالك

---

1 – المرجع السابق، ص 10 .

2 – عبد المجيد سيد منصور وآخرون، **الأسرة على مشارف القرن 21**، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، 2000، ص41 .

بن نبي "هو الجماعة التي تغير دائما خصائصها الاجتماعية بإنتاج وسائل التغيير، مع علمها بالهدف الذي تسعى إليه وراء هذا التغير،فالمجتمع تبعا لهذا هو ليس مجرد مجموعة من الأفراد بل هو تنظيم معين ذو طابع إنساني يتم طبقا لنظام معين" [1] فمن الضروري أن يراعي الباحث الاجتماعي في ميدان بحثه هذه الخصائص ويضع في اعتباره أنه يتعامل مع كيان متنوع متغير وله تركيبة معينة في إطار نظام للتفاعل والاتصال ومجموعة من الوظائف تبعا للعديد من الأدوار وبها تتشكل لكل مجتمع ثقافة معينة تعطي بعدا آخر لعملية البحث الاجتماعي الميداني.

ويمكن على ضوء ذلك أن نقف عند أنواع من المشكلات التي يتناولها البحث الاجتماعي وأهمها:

1) مشكلات الحياة الاجتماعية: مثل الجريمة، الانحراف، التسول، الفقر، الإدمان على المخدرات السرقة التفكك الأسري... إلخ

2) مشكلات ترتبط بالإطار الاجتماعي العام: مثل دراسة تاريخ حياة مجتمع من المجتمعات أو دراسة المجتمعات البدائية بخصائصها التي تختلف عن خصائص المجتمعات الحديثة أو دراسة مشكلة الرأسمالية أو مشكلة الطبقات الاجتماعية... أي المشكلات التي ترتبط بشكل عام بالفكر الاجتماعي قبل ارتباطها بالفرد والحياة الاجتماعية اليومية.

3) مشكلات ترتبط بالعلم الاجتماعي ذاته: وهنا تطرح نظريات علم الاجتماع مثلا وإسقاطاتها في ميدان اجتماعي ما أو تطبيق إحدى تقنيات البحث الاجتماعي وأساليبه...

4) مشكلات ترتبط بالنظم الاجتماعية: والمتمثلة في المؤسسات السياسية(الأحزاب) والمؤسسات التربوية (المدرسة والجامعة والمكتبات...)

---

[1]– مالك بن نبي، **سلسلة مشكلات الحضارة، الجزء الأول : ميلاد مجتمع**، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر الجزائر، سوريا، الطبعة الثالثة، 1986، ص15 .

وهنا يتوجه الباحث إلى البحث في مشكلات هذه النظم للتعرف على تركيبتها (بنيتها) وارتباط الأفراد فيها، وإسهامها تامين الحاجيات وغيرها .

إضافة إلى مشكلات أخرى ترتبط بالمجتمعات والظواهر الاجتماعية ضمن هذه المجتمعات إن دراسة كل هذه المشكلات على اختلاف أنواعها هي من اهتمامات الباحث الاجتماعي، وهي موضوعات البحث الاجتماعي بشكل عام والبحث الاجتماعي الميداني بشكل خاص.

غير أن الدراسة الموضوعية لهذه المشكلات تقوم على معايير وأسس يستخدمها الباحث الاجتماعي وهي مضمون البحث الاجتماعي الميداني.

إن النظرة التاريخية السريعة للبحث الاجتماعي عامة والميداني خاصة تشير[1] إلى تجدره على الرغم من كونه ظاهرة خاصة بالعلم المعاصر، نجد سمة التزاوج بين تقليدين أوروبيين وتقاليد النظرية الاجتماعية التي تعود إلى(أفلاطون) وبين تقاليد البحث التجريبي الذي ينتمي إلى القرن 17 ففي اليونان حيث نشأت النظريـــة الاجتماعيـــة، كان كل ما يتعلق بالبحث الاجتماعـــي مجهولا، علـى الرغـم من أن (أرسطو) جمع المعلومات حول الأنظمة السياسية للمدن اليونانية، ومع أن العصر الوسيط وعصر النهضة كانا غنيين بالنظرية فلم يتم القيام بأي جمع منظم للإحداث الاجتماعية بهدف التفكير بحلها.

لقـد اكتفى المنظـرون الحديثون الأوائـل، إما بالأبحاث في المكتبات وبمصـادر الدرجـة الثانيـة مثل

(بودان) و(منتسيكو) وإما بالتأكيد، مثل(لوك) و(روسو) بأن المعارف الشائعة كانت تكفي لتزويدهم بكـل ما كانـوا يرغبون في معرفتـــه. مع ذلك وجدت بعض الاستثناءات النـــادرة فقـــد استعمـــل

[1]– تيودور كابلوف، **البحث السوسيولوجي**، دار الفكر الجديد، القاهرة، مصر، د.ط، 1979، ص 8.

(آدم سميث) لإحصاءات بكثرة في كتابه (ثروة الأمم)، وجمع (مالتوس) كمية كبيرة من المعطيات السكانية الوافدة من العالم كله ونشرها في آخر كتابه (مقال عن السكان) من أجل دعم وجهة نظره .

ودراسة (انجلز) حول (وضع الطبقات العاملة في انجلترا عام 1844) يعد بحثا ميدانيا جديرا بالاهتمام ولكنها بقيت وحيدة على امتداد الطرح الماركسي تقريبا .

أما المؤسسون الرئيسيون لعلم الاجتماع الحديث فلم يلتزموا كلهم بالبحث الميداني التجريبي فـ(زيمل) مثلا لم يعيره أي انتباه وقد أوضح أن تحليلاته تستند على أفكاره فقط، أما (باريتو) و(فيبر) فقد كانا ذوي معرفة متفوقة فـ(باريتو) كان لديه اطلاع خارق على الوثائق اليونانية،اللاتينية والعبرية، التي تعود إلى العهد القديم والعصر الوسيط، و(فيبر) كان علمه تاريخي شمل التفاصيل الأكثر دقة للتنظيم الاجتماعي لكل حضارة أبقت بعض الشواهد المكتوبة، وكلاهما شجع البحث الميداني و لكنهما مارسا منه القليل، لأن دراسات (باريتو) حول توزيع المداخيل تنتمي على الأرجح للجزء الاقتصادي من عمله و ليس الاجتماعي منه.

وعمل (فيبر) الذي يقوم على الملاحظة حول مصنع في (روسيا الشرقية) يمتلكه جده يمثل طرحا يهتم بسيرة الحياة فيه أكثر منه عملا بحثيا هاما بميدانه.

إن دراسة (دوركايم) عن الانتحار المنشورة عام 1895 هي المثال الواضح والكامل عن البحث الحديث (الاجتماعي الميداني)، فالموضوع هو مشكلة اجتماعية وهو مفيد بحد ذاته وقد أخذت المعطيات من المحفوظات الوطنية ومن تحقيقات سابقة، ونجد في هذه المعطيات تحليلا مبتكرا للتقارير الرسمية غير المنشورة، فالقسم النظري موسع بصورة خاصة، والفائدة النظرية للكتاب تجاوزت مسألة الانتحار وحدها والنظريات السابقة ممتحنة بشكل مضبوط، وإطار البحث محدد بوضوح، أما مدلول إحصائيات الانتحار فهو مدروس بكل تشعبانه،

والفرضيات جرى تعديلها وتحسينها بعد مجابهتها مع المعطيات وقد اتخذت صياغة جديد اعتمدت في العمل البحثي الميداني .

إن اندماج هذين التقليدين (النظرية الاجتماعية والبحث التجريبي) قد تم بصورة تدريجية وبدرجات غير منظورة حتى المرحلة الراهنة حيث اكتسب البحث الجاد نضوج النظريات الجديدة وفي الوقت نفسه تجميع الوقائع الجديدة، ولكن ذلك لم يتم دون مواجهة، وانطلاقا من ذلك برز البحث الاجتماعي الميداني وشكل الجانب التطبيقي للعلم الاجتماعي الذي يدرس المجتمع وصفا وتحليلا ميدانيا[1].

هذا ما يطرح بدوره مسألة أخرى تتعلق بالنطاق السوسيولوجي للبحث والذي يشمل الباحث والبحث فبالنسبة للباحث يتمثل في ما يعرف بالقطع السوسيولوجي[2] والذي يحتم على الباحث نوعا مغايرا من الوعي بموضوع بحثه، على اعتبار أن الباحث يمارس اقترابا من الموضوع والذي هو طبيعي في المجال السوسيولوجي حيث أن هناك تشابها بين الإنسان موضوع البحث في خصائصه ومميزاته العامة والباحث فكلاهما بشر، فالثاني لديه نزعة طبيعية نحو الاعتقاد بأنه يعلم ما يعيشه الأول، بالرغم من الأسئلة التي يوجهها إليه، ذلك لأن الفلك الذي يدور فيه الاثنان هو **الحقل الاجتماعي** لكن لابد أن ننتبه هنا إلى مشكلة ربما تنسف بكل مجهودات البحث وهي محاولة الباحث إسقاط تصوراته العامة على موضوع البحث حيث يقول(بيار بورديو) في هذا الخصوص: "**يشكل الاقتراب (الطبيعي) من العالم الاجتماعي العقبة الابستمولوجية الرئيسية، حيث أنه يتمخض باستمرار عن مفاهيم أو عن**

---

[1]– عدنان أحمد مسلم، مرجع سبق ذكره، ص 11 .

[2]– د. فردريك معتوق، **منهجية العلوم الاجتماعية عند العرب وفي الغرب**، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت– لبنان، الطبعة الأولى،1985، ص 101.

تحاليل وهمية وجامدة، ويتمخض أيضا عن شروط الاقتناع بصحة تلك المفاهيم والتحاليل"[1].

إذا فمن السهولة بما كان أن نجري عملية استنتاج مسبقة لنتائج كل بحث من الأبحاث الاجتماعية الميدانية ونقول أنها كذا و كذا تبعا لأفكارنا المسبقة والكثيرة والمتفشية في العالم كله، فالأفكار المسبقة موجودة في ذهن الباحث الاجتماعي كما في ذهن أي إنسان، فنمو كل واحد منهما بنزعات فكرية معينة تشمل كل أوجه الحياة، وتبعا لهذه الخاصية المشتركة يسهل إطلاق الأحكام المسبقة، إلا أن مهمة الباحث الاجتماعي عكس ذلك لأنها تفرض عليه ملاحظة الواقع الاجتماعي في تنوعه المستمر ومنها تتجلى ضرورة منهجية تلزم الباحث إجراء عملية القطع السوسيولوجي تجاه الموضوع الذي ينصب على دراسته، اعتباره شيئا ما خارج التجربة الاجتماعية الشخصية، وإذا أردنا أن ندعم ذلك بأمثلة على أهمية مبدأ القطع السوسيولوجي نجد الدراسات التي قام بها الباحث الأمريكي (لازارسفيلد) والتي كذبت بعض الشائعات في الشارع الأمريكي (كالقول بان الجنود المتعلمين أكثر عرضة من غير المتعلمين للإصابة بالحالات العصبية والقول بأن الجنود السود أقل طموحا من الجنود البيض في الجيش الأمريكي، لكونهم ينتمون إلى العرق الكسول)، وقد استنتج هذا العالم الاجتماعي من خلال بحثه الميداني ما يخالف هذه الأفكار التي كانت رائجة، حيث توصلت الدراسة الميدانية للواقع الاجتماعي أن غير المتعلمين من الجنود هم أكثر عرضة للإصابة بالحالات العصبية من المتعلمين والجنود السود أكثر نشاطا ومثابرة بسبب دوافع الطموح لبلوغ مراتب عليا. كما يمكن أن ندعم بأمثلة محلية حيث أن هناك أحكاما وأفكارا مسبقة حول العديد من المسائل ذات الصلة بحياتنا الاجتماعية منها أن نسبة الإناث في مجتمعنا أكثر بكثير من نسبة الذكور في إطار ما يعرف بالتركيبة الديمغرافية في المجتمع الجزائري ولكن ما توصل إليه

[1]–المرجع السابق، ص 102.

المسح الميداني الأخير في الجزائر(تعداد 2008) أظهر خطأ هذه الأفكار والأحكام وأكد تساوي هذين النوعين في التركيبة الديمغرافية الجزائرية.

وهذا لا يعني أن جميع الأفكار العامة هي مغلوطة وخاطئة، لكن النزاهة العلمية للباحث الاجتماعي تفرض عليه أن ينطلق من جميع الأفكار على أساس أنها ليست كما هي مطروحة في الواقع الاجتماعي المعاش، حيث يجعل هذا ذهنه أكثر انفتاحا على الظاهرة وأكثر تتبعا لوجود الجديد فيها.

ثالثا : الواقع الاجتماعي و الواقع السوسيولوجي

الباحث في علم الاجتماع يخلط بين ما يطلق عليه اسم **الواقع الاجتماعي و الواقع السوسيولوجي** في العلوم الاجتماعية، **فالواقع الاجتماعي** " هو الذي ينشأ عن فكرة أو تصور مسبق (نظن أن الظاهرة قائمة على الشكل –أ– و ليس على الشكل – ج – مثلا دونما التأكد من واقع هذه الفكرة ميدانيا) فالواقع الاجتماعي هو في الحقيقة ما نتصوره غريزيا فهو الواقع حين يكون ذلك صورة الواقع ذهنيا .

لكثرة قرب هذه الفكرة منا حيث أنها تصدر من وعينا الذي نثق به تلقائيا، لنلحقها بالواقع مباشرة كما هي دون تمحيص وكأننا نجبر إنسانا على ارتداء لباسا ليس على مقاسه ورغبته ولا نجني هنا إلا حلقة لا متناهية من النفور والرفض (وأننا نقوم بهذا بشكل عفوي لضننا الغير قطعي أنه الصواب).

كما أن منشأ الواقع الاجتماعي قد يكون إما محيطنا وهنا يحمل الصفة الذاتية التي تلحق بتصوراتنا وإما محيط الظاهرة وما يحمله من إيحاءات حولها ويجعلها تتمظهر بكثير من المظاهرة وخطر الواقع الاجتماعي أنه يشوش على عملية البحث، حيث أن الأفكار التي ينطلق منها الباحث الاجتماعي هي بمثابة الأعمدة التي تقوم عليها البناية، فأي خطا في تلك الأفكار يؤدي لا محالة إلى انهيار التحليل بكامله .

أما **الواقع السوسيولوجي**[1] فنظريا هو عكس الواقع الاجتماعي على اعتبار أنه هو الواقع الذي تم قياسه واختباره بواسطة تقنيات سوسيولوجية متفق عليها، ولكن هذا لا يطرح مسألة نفيه للواقع الاجتماعي حيث يمكن أن يثبت تطابقه مع الواقع الاجتماعي بشكل تام، فالاختلاف جوهري بينهما كون الأول صادر من تصور مسبق و بأحكام مسبقة غذت عناصر أخرى زادت من مشكلة التصور المسبق هذه، أما الثاني فيصدر عن تصور لاحق أي بعد القياس و الاختبار هو إلى حد ما تصور مركب من الناحية العلمية ويمكننا هنا أن نسوق مثال لذلك من خلال أعمال (بيار بورديو) وفي دراسة بنيوية و جدلية عنوانها الورثة 1964 حول نظام التدريس في فرنسا والذي كان التصور العام حولها أنها تضمن التدريس دون تمييز طبقي أو عرقي أو إيديولوجي ... وهذا هو ما يوجد في أذهان عامة الناس و كسياسة معلنة سواءا في فرنسا أو في أوروبا عامة ولكن ما توصل إليه(بورديو) إلى أن هذا النظام رغم إدعائه المساواة و الديمقراطية بين جميع الفرنسيين يعمل في الواقع على فرز الطلاب إلى فئتين، فئة اليدويين وفئة غير اليدويين (المثقفين فيما بعد) بشكل يتطابق مع أصولهم الطبقية،أبناء الأطباء والأساتذة والأثرياء يتم توجيههم بشكل مباشر وانطلاقا من المؤهلات التي يكونون قد اكتسبوها في بيئتهم نحو التعليم العالي (التعليم الجامعي)، أما أبناء الطبقات العاملة فيتم توجيههم انطلاقا من مؤهلاتهم الطبيعية أي الناشئة عن بيئتهم العائلية والاجتماعية،نحو المدارس المهنية، فهذه الحقيقة التي أثبتها (بيار بورديو) جاءت سوسيولوجيا[2].

فمسألة الفرق بين الواقع الاجتماعي والسوسيولوجي، فيها من الأمثلة الكثيرة فأنظمة المستشفيات وواقعها الاجتماعي لا تتطابق مع واقعها السوسيولوجي، وكذلك بالنسبة للسجون والعديد من المؤسسات الاجتماعية وهذا ما يدفع أحيانا

---

[1]–د. فريديريك معتوق، مرجع سبق ذكره، ص 107 .

[2]- فريديريك معتوق، مرجع سبق ذكره، ص 109 .

القائمين عليها إلى لعب أدوار تعرقل البحث أو تحرف مساره وربما ما يمكن أن نسجله في باب صعوبات البحث الميداني (السوسيولوجي)، ولكن الهدف ليس فقط استعراض الأمثلة بقدر ما هو ضرورة التقيد بهذا المفهوم وتطبيق خصوصياته وحدوده لعدم الوقوع في مغالطات منهجية تضر بمصداقية البحث وتنسف الكثير من المجهودات في هذا الميدان، **فكما قال فرديرك معتوق الصورة على الغلاف لا تتناسب بالضرورة مع ماهو موجود داخل الكتاب**، وكلنا يعلم ذلك .

رابعا : خصائص البحث الاجتماعي الميداني

إن البحث عن الحقيقة كان ولا يزال الهدف الذي تسعى إليه كافة العلوم. إلا أن البحث في العلوم الطبيعية كان أيسر منه في العلوم الاجتماعية، ويرجع ذلك إلى طبيعة الظواهر التي تشكل موضوع دراسة كل منهما فالظاهرة الطبيعية تتكون من عدد من العوامل أقل من التي تتكون منها الظاهرة الاجتماعية، وهذا يعني أن الباحث الاجتماعي يواجه صعوبة أثناء تحديد السبب أو الأسباب التي أوجدت الظاهرة، وهذا بدوره يخلق صعوبة في التفسير و التنبؤ. وقد أشار **أوغست كونت** إلى أن الحياة الاجتماعية معقدة وأن هذا التعقيد يؤثر على طبيعة العلم الذي يدرس ظواهر تلك الحياة، و يبدو ذلك واضحا في تصنيفه للعلوم كالآتي :

1. علوم الرياضيات
2. علم الفلك
3. علم الطبيعة
4. علم الكيمياء
5. علم الحياة
6. علم الاجتماع

ووفقا لهذا التصنيف الذي وضعه **كونت**، والذي يتعلق بالعلوم سالفة الذكر" تتدرج هذه العلوم بناء على درجة عموميتها التي تنقص شيئا فشيئا وعلى درجة تعقيد موضوعاتها التي تزيد بالتدريج. وبديهي أن موضوع الرياضيات أشد عمومية وأقل تعقيدا من موضوع علم الفلك، وهكذا الأمر بالنسبة لكل علم منها تجاه العلم الذي يليه.

فالعـــــلم الأول إذن يفحص أشد الظواهر عمومية وأقلها تركيبا وأشدها تجريدا وأكثرها بعدا عن الإنسانية،... أما الظواهر التي يدرسها العلم الأخير فهي أشد الظواهر خصوصية وأكثرها تركيبا وأشدها اهتماما بالأمور الحسية وهي أكثرها أهمية من الوجهة المباشرة للإنسانية وتتوقف قليلا أو كثيرا على الظواهر السابقة لها"[1]

إن ما ذكر عن طبيعة الظواهر الاجتماعية بالمقارنة وتلك الطبيعية يجب ألا تشكل عقبة أمام الباحث الاجتماعي تمنعه من متابعة العمل الجاد لدراستها، بل على العكس من ذلك يجب أن يتحول هذا المعطى إلى حافز يدفعه لدراستها بجد وصبر، ويحمله على تبني اتجاه علمي scientific attitude في البحث.

ويتطلب الاتجاه العلمي من الباحث الاجتماعي أن يعتمد في دراسته للظواهر الاجتماعية على المنهج العلمي، وهذا يلزمه بإتباع إجراءات منهجية محددة أثناء تنفيذ البحث .والاتجاه العلمي في البحث يفترض وجود بعض السمات في الباحث العلمي، كسعة المعرفة والاطلاع في مجال تخصصه والمجالات المرتبطة به والخيال الخلاق والفكر المتفتح على التجارب والخبرات العلمية السابقة والمتاحة ...

وتبدو هذه السمات جلية في جميع مراحل البحث العلمي، وتكتسب أهمية كبيرة في مرحلة جمع البيانات وكذلك في مرحلة التحليل والتفسير. كما أن وجود

---

[1] المقدم مهى سهيل، **أوغست كومت في ميزان الفكر الاجتماعي العربي**، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان 1994، ص 25، 26.

هذه السمات لدى الباحث العلمي يعني تخلصه نهائيا من التحيز والتصورات السابقة التي قد توجه مسار البحث وجهة ذاتية، وتحرفه عن مسار الموضوعية والحياد العلمي الذي يعد مطلبا حيويا لكل بحث علمي.

ويفترض الاتجاه العلمي على الباحث ألا يكتفي بمجرد وصف الظواهر التي يدرسها فقط، بل أن يعتبر هذا الوصف خطوة للوصول إلى تفسير ملائم لتلك الظواهر، والبحث العلمي يطرح عدة تساؤلات هامة وهو بصدد الدراسة العلمية لأية ظاهرة، ومنها :

أولا : هل هذه الظاهرة هي كذلك في الحقيقة كما تبدو أمامه، أم أن لها صورا وأشكالا أخرى مختلفة ؟ ويتركز الاهتمام هنا على وجود الظاهرة وعلى إمكانية ظهورها بالصورة نفسها لدى باحثين آخرين.

ثانيا : إلى أي مدى تظل الظاهرة على ما هي عليه؟

إن الإجابـــة عن هذه الأسئلة تمكن من تقديم وصف دقيق للظاهرة المدروسة، وتفسح له المجال للبحث عن تفسير ملائم لها من خلال الإجابة عن السؤال التالي : **ماهي الظروف التي أدت إلى وجود الظاهرة** ؟ وهكذا ينتقل الباحث من مرحلة الوصف إلى مرحلة التفسير والكشف عن العوامل والأسباب التي أدت إلى وجود الظاهرة .

ويتطلب الاتجاه العلمي من الباحث أن يعتقد أن البحث هو الوسيلة الأساسية لتحقيق التقدم والرفاهية ولاكتساب المزيد من المعرفة، ويتميز الاتجاه العلمي بعدة خصائص أو سمات فمن الملاحظ أولا أن هذا الاتجاه يسلم بحقيقة مفادها أنه من الممكن اكتشاف تفسير طبيعي لكل ظاهرة نلاحظها في الواقع . فالكون منظم بشكل يسمح بإرجاع كل ظاهرة إلى أسباب وجودها وعن طريق البحث العلمي نصل إلى القوانين العلمية التي تفسر مثل هذه الأسباب، وتجدر الإشارة هنا إلى أن هناك مجالات عديدة للمعرفة لا تزال مستعصية على البحث العلمي.

ومن الملاحظ ثانيا أن هذا الاتجاه يفرض عدم قبول أية نتائج إلا إذا توافرت الشواهد الواقعية على صحتها ويمكن للباحث الحصول على هذه الشواهد أثناء ملاحظاته الدقيقة للواقع الذي يعيشه . والباحث هنا لا يكتفي بمجرد الملاحظة وجمع الحقائق، بل يعمد بعد ذلك إلى اكتشاف العلاقات القائمة بين هذه الوقائع ليخلص منها إلى نتيجة عامة، فالانتقال من الخاص إلى القضايا العامة هو لب الطريقة الاستقرائية التي أصبحت منهج البحث العلمي.

والملاحظ ثالثا وأخيرا ضرورة استعانة الباحث بالتجريب وهو ملاحظة مضبوطة تهدف إلى التحقق من صحة الفروض المبدئية،ويعتبر الضبط أو التحكم في الظروف المحيطة بالتجربة شرطا رئيسا لنجاحها .[1]

ويتميز البحث العلمي ومنه البحث الاجتماعي بعدة خصائص يمكن تلخيصها وتوضيحها على النحو التالي :

1. البحث العلمي عبارة عن نظام (System) متكامل وهادف، يقوم على الربط بين الوسائل والإمكانات المتاحة من أجل الوصول إلى غايات مرسومة و مشروعة تتركز حول حاجات الإنسان ومشكلاته و فرص تقدمه .
2. يتكون البحث من أجزاء مترابطة هي الشكل والمحتوى والأسلوب .
3. البحث العلمي نشاط قائم على عدة مرتكزات والمتطلبات المادية والمعنوية وأهمها :

⇐عناصر بشرية مؤهلة تتميز بالقدرة الإبداعية والعلمية في مجالي البحث العلمي و التخصص الأكاديمي

⇐مخصصات مالية ومادية مناسبة لنشاط البحث العلمي .

⇐الدعم والتنسيق والتشجيع والتعاون على كافة المستويات الشخصية والرسمية والدولية.

---

[1] – محمد محمد علي، **مقدمة في البحث الاجتماعي**، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، د،ط،1983، ص 20، 22.

⇐تسهيـــلات إداريــة ومكتبيــة متطورة بما في ذلك مصادر المعلومات الحديثــة وخدمــات المكتبـــات والمعلومات المتقدمة.

⇐الالتزام بالقواعد العلمية والآخلاقية في البحث .

4. البحث العلمي جهد إنساني ونشاط يتمحور حول الإنسان نفسه، فهو وسيلة وغاية يتوقف عليه مستوى التقدم العلمي.

5. البحث العلمي نشاط منظم قائم على مجموعة من القيم والقواعد والطرق المنهجية المعروفة و المقبولة علميا وعمليا والمتطورة بإستمرار لأنه بعيد عن العشوائية والارتجالية والمزاجية والشخصية والفوضى.

6. البحث العلمـــي يقوم على تطبيق الطريقـــة العلميـــة فـي تحليل المشكلات ودراســـة الظاهرة الطبيعيـــة والاجتماعية، وترتكز الطريقة العلمية على ما يلي:

⇐الموضوعية والحياد في تحديد المشكلات وبحثها وتحليلها.

⇐الاعتماد على مقاييس محددة وإجراءات معروفة في معالجة المشكلات.

⇐إيجاد الأدلة العلمية الملائمة والمقنعة والمشروعة وتقديمها بصدق وأمانة.

⇐الابتعاد عن الجدل العقيم .

⇐الانفتاح العقلي والعلمي والاستعداد المخلص لقبول الآراء الأخرى.

7. البحث العلمي يقوم على وضوح الرؤية والربط الفعال بين الوسائل والغايات.

8. البحث العلمي يتميز بالسعي نحو التجديد وتوخي التميز شكلا ومضمونا وأسلوبا[1]

خامسا : صعوبات البحث في العلوم الاجتماعية

يعترض سير البحث في جميع العلوم صعوبات عديدة، وهذه الأخيرة تزداد تعقيدا في ميدان العلوم الاجتماعية نظرا لتشابك وتداخل العوامل بين ظواهر

[1]– العواملة، نائل حافظ، **أساليب البحث العلمي : الأسس النظرية و تطبيقاتها في الإدارة**، مكتبة أحمد ياسين، عمان، د ط، 1995 ص (20 – 24)

الحياة الاجتماعية، من جهة وارتباط الباحث الاجتماعي نفسه بالمجتمع الذي يدرسه من جهة أخرى.

" إن البحث العلمي في مجال العلوم الطبيعية و الحيوية قد بلغ درجة عالية من التقدم المحقق لغايات العلم في الوصف والتفسير والتنبؤ والتحكم، ومن الأمور المتفق عليها كذلك أن البحث العلمي في بعض مجالات العلوم الاجتماعية يكاد يكون له نفس سمات التقدم التي لنظيره في العلوم الطبيعية والحيوية، لكن في المقابل توجد الكثير من العقبات أو المصاعب التي تكاد تشكل السمة الأساسية للبحث العلمي في مجال كثير من العلوم الاجتماعية"[1]

أما عن الصعوبات التي تعترض سير البحث في العلوم الاجتماعية فهي عديدة وسنحاول هنا الحديث عن عدد منها وهي:

1. تتسم الظواهر الاجتماعية بالتطور والتغير الدائمين:

إن الحياة الاجتماعية تتطور وتتغير باستمرار، وهذا يتطلب من الباحث الاجتماعي العودة إلى تاريخ الظاهرة قيد الدراسة للتعرف على أصولها، ومن ثمة تتبع المراحل الزمنية التي مرت بها، وكشف عواملها التي أدت إلى إحداث تطور أو تغير فيها وهنا تواجه الباحث صعوبة كبيرة، فقد لا تتوفر المعلومات الكافية عن موضوع الدراسة، كما أن دراسة الماضي تتطلب من الباحث فهم الظاهرة المدروسة ضمن الحقبة الزمنية التي سادت فيها، أي أن يستخدم الباحث في فهمهـــا المفاهيـــم التي كانت سائدة في تلك المرحلـــة لأن المفهوم نسبـي و يكتسب مع مرور الزمن مدلولا مغايرا لما كان عليه في السابق.

إضافة إلى ذلك "إن مادة الدراسة وهي العلاقات الاجتماعية التي تصدر عن الإنسان في تفاعله مع الآخرين متطورة متغيرة غير ثابتة، وهذا بسبب صعوبة ضبط المتغيرات المدروسة. أما مادة الدراسة في العلوم المادية الطبيعية فهي لا تتغير إلا إذا أردنا نحن ذلك، فالحديد مثلا إذا وضعنا فوقه مادة كيميائية

[1]– الفوال صلاح مصطفى، **منهجية العلوم الاجتماعية**، عالم الكتب، القاهرة– مصر، د.ط، 1982، ص39.

تؤثر فيه. وعن طريق هذا الثبات النسبي نستطيع أن نتقن التجربة ونتأكد من عناصرها المختلفة. "[1]

2. إن الظواهر الاجتماعية متداخلة ومتشابكة وتتميز بالتعقيد:

باعتبار أن العلوم الاجتماعية تتعامل مع الإنسان وهو في مختلف الحالات الفردية والجماعية والمجتمعية وهي بالتالي تتأثر بالسلوك الإنساني المعقد، فالظاهرة الاجتماعية تتعدد أسبابها وعواملها فظاهرة الانحراف – مثلا– تتشابك وتتداخل وتتفاعل عدة عوامل في إيجادها، فقد يكون العامل الرئيســـي لها هو الفقر أو التفكك الأسري، وقد يكون السبب رفاق السؤ.

3.صعوبة ملاحظة الظواهر الاجتماعية:

تتمثل هذه الصعوبة في أن بعض الظواهر التي يرغب الباحث الاجتماعي في دراستها ويصعب عليه ملاحظتها مباشرة، فليس بمقدوره _ مثلا _ أن يرى ظاهرة حدثت في الماضي. كما أنه لا يستطيع أن يكرر الأحداث الاجتماعية السابقة بغية ملاحظتها بشكل مباشر، وكل ما يمكنه فعله هو ملاحظة بعض الظواهر الاجتماعية الراهنة .

4. الظواهر الاجتماعية أقل قابلية للتكرار :

تتميز الظاهرة الاجتماعية بشخصية متفردة وغير متكررة، حيث لا يمكن أن تتكرر الصورة نفسها بأي حال من الأحوال، وعلى الرغم من أننا بالإمكان استخلاص وصياغة بعض السمات المشتركة لبعض الظواهر الاجتماعية إلا أنه تبقى لكل ظاهرة صفات خاصة بها تميزها عن غيرها، ويختلف ذلك في العلوم الطبيعية.

وهذه الصعوبة في تشكيلها والتحكم في إجراءات حدوثها يجعل من العسير إجراء التجارب الاجتماعية، مع التأكيد على إمكانية استخدام التجربة الحقلية في مجال

---

[1]– صفوح الأخرس، **علم الاجتماع العام: الأحوال النظرية و المنهجية لدراسة المجتمع**، الجزء الثاني، مطابع مؤسسات الوحدة، دمشق، سوريا، د.ط، – 1981–1982، ص 263 .

العلوم الاجتماعية، وهذا ما يجعلنا نقول أن صياغة القوانين الاجتماعية وتحقيقها في العلوم الاجتماعية أكثر صعوبة من العلوم الطبيعية.

5. التأثير المتبادل بين الباحث والظاهرة المدروسة :

يتعامل الباحث في مجال العلوم الاجتماعية مع ظواهر تمتاز بحساسية كبيرة، لأن محورها هو الإنسان في حالاته المختلفة. فقد يدرس أفرادا ينتمون إلى تجمع أو مجتمع هو عضو فيه، يشاركهم الكثير من الآراء والتصورات والقيم، وهو معرض أثناء ذلك للتأثر بتلك القواسم المشتركة وقد ينحاز لها، الأمر الذي يبعده عن الموضوعية والتي هي أساس البحث العلمي.

المهم أن هذا التأثير المتبادل بين الباحث والظاهرة المدروسة قد يجعلهما شريكين في علاقة اجتماعية مشتركة وهذا ما يسمح بظهور أحكام نابعة من القيم والآراء والمعتقدات والعواطف الخاصة.... وهذا ما معناه البعد عن الموضوعية والتحيز[1]

"فالبحث المنهجي الجيد هو الذي يحاول أن يكشف عن الحقيقة بصرف النظر عن أي اعتبار آخر، وهنا يجب التمييز بين التحيز لنتائج البحث العلمي في التطبيق، والذاتية في تحليل الظواهر فالمسألة الأولى مشروعة ومعقولة، أما الثانية فهي مشوهة للعلم ولأصوله "[2]

6. تعدد المفاهيم العلمية المستخدمة في العلوم الاجتماعية واختلاط معانيها وعدم اتفاق الباحثين على تعريفات محددة لها:

يعني المفهوم Concept" رأيا أو منطقا أو مجموعة معتقدات حول شيء معين، ويمكن تعريفه بالاسم الذي يطلق على الأشياء التي هي من صنف واحد أو الذي يطلق على الصنف نفسه، واصطلاح الفكرة أو المفهوم في علم الاجتماع

[1] -Van Dalen, Understanding Educational Research, An introduction, Mc Grow Hill, New York- 1962 ch3

[2]– صفوح الأخرس، مرجع سبق ذكره، ص 270 .

هو اصطلاح تجريدي لا يمكن اعتباره النظرية الاجتماعية ذاتها، بل هو جزء مهم منها طالما أنها تتكون من مجموعة أفكار مترابطة ترابطا منطقيا وجدليا "[1]

وقد تحمل بعض المفاهيم أكثر من معنى كمفهوم " الثقافة culture " حيث يعتبره بعض علماء الاجتماع

مرادفا لمفهوم الحضارة أو المدنية ويعبرون به عن العناصر المادية والمعنوية في المجتمع، في حين يعتبره آخرون مرادفا للعناصر المعنوية، ويستعمله البعض ليعبر عن مستوى تعليمي وثقافي معين، أو لوصف سلوك فئة اجتماعية معينة [2]

خاتمـــة

تعد المسائل المتعلقة بالبحث الاجتماعي ذات أهمية بالغة خاصة ما تعلق منها بالممارسة البحثية الميدانية، ونحن نقصد هنا أجرأة البحث والذي يعد بناء متكامل وتصور الباحث ووعيه بذلك هو شرط أساس، هذا الطرح يرتبط بالموازنة بين تفكير الباحث الاجتماعي وجهده الذهني الذي يبذله في سبيل تحليله العام للظاهرة هذه العملية الفكرية تساوي جملة الأسئلة التي يطرحها حول الظاهرة والتي تنعكس على مسألة الإجابة عن تلك الأسئلة، وكلاهما نتيجة لوعي معين، وهنا تبرز قضية مهمة تلازم سيرورة عملية البحث وهي البعد الواقعي للمواضيع التي نتبناها كمواضيع للبحث الاجتماعي الميداني دون أن ننساق وراء أفكار غير واقعية، بل هي في درجة الوهمية، فالباحث إنسان يتمتع بمواصفات نوعية من حيث فهمه وامتلاكه لموضوعه ومن ثمة قدرة علمية تحيط بكل ما من شأنـه أن يساهم في الكشف عن مختلف الحقائق العلمية بالإضافة لإتقانـــه للممارسة البحثيـــة ونقصد بها التحكم في استخـدام الأساليب والأدوات البحثية التي تتوافق مع الموضوع الدراسة فممارسة البحث الاجتماعي الميداني هي في

---

[1]– ميتشل دينكن، **معجم علم الاجتماع**، ترجمة إحسان محمد الحسندار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1986، ص 54، 55 .

[2] – داوود ليلى، **البحث العلمي في العلوم النفسية و الاجتماعية**، منشورات جامعة دمشق، سوريا، د.ط، 1988_1989،ص (34 _ 38).

حقيقتها تواصل مع الواقع وفق رؤية ممنهجة تهدف إلى الكشف عن كثير من الحقائق التي نحن بحاجة إلى بلوغها.

وعليه فإن هذا الطرح يمثل أحد اكبر التحديات التي تواجه واقع العلوم الاجتماعية خاصة عندنا بالنظر إلى وعينا بأهميتها كمجهودات مقصودة ومنظمة هدفها الجوهري هو مساندة المجتمع وتدعيم كل ما من شأنه أن ينتج التطور والتنمية، فالعلوم الاجتماعية في مهدها أسست لإعادة هيكلة مجتمعات بكاملها بسبب موجة من التغيرات الاجتماعية خاصة والمتنوعة عامة.

قائمة المراجع :

1. العواملة نائل حافظ، أساليب البحث العلمي: الأسس النظرية وتطبيقاتها في الإدارة، مكتبة أحمد ياسين، عمان، د ط، 1995.

2. المقدم مهى سهيل، أوغست كومت في ميزان الفكر الاجتماعي العربي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان 1994

3 . تيودور كابلوف، البحث السوسيولوجي، دار الفكر الجديد، القاهرة، مصر، 1979.

4. داوود ليلى، البحث العلمي في العلوم النفسية والاجتماعية، منشورات جامعة دمشق، سوريا، د.ط، 1988_1989.

5. صفوح الأخرس، علم الاجتماع العام: الأحوال النظرية والمنهجية لدراسة المجتمع، الجزء الثاني، مطابع مؤسسات الوحدة، دمشق، سوريا، د.ط ،1982.

6. صلاح مصطفى، منهجية العلوم الاجتماعية، عالم الكتب، القاهرة، مصر، د.ط، 1982.

7 . عبد المجيد سيد منصور وآخرون، الأسرة على مشارف القرن 21، دار الفكر العربي، القاهرة– مصر، الطبعة الأولى، 2000.

8. عدنان أحمد مسلم، البحث الاجتماعي الميداني، منشورات جامعة دمشق، سوريا، الطبعة الثالثة،2003.

9. فردريك معتوق، منهجية العلوم الاجتماعية عند العرب وفي الغرب، المؤسسة الجامعية للدراسات للنشر والتوزيع، بيروت– لبنان، الطبعة الأولى، 1985.

10 . مالك بن نبي، مشكلات الحضارة: ميلاد مجتمع، الجزء الأول، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر(الجزائر– سوريا)، الطبعة الثالثة –1986.

11. محمد محمد علي، مقدمة في البحث الاجتماعي، دار النهضة العربية، بيروت–لبنان، د،ط، 1983 .

12. ميتشل دينكن، معجم علم الاجتماع، ترجمة إحسان محمد الحسن، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1986.

13-Van Dalen- Understanding Educational Research – An introduction –Mc Grow Hill – New York- 1962